



الموقفين العربي والأوروبي من الرقيق الأفارقة

في القرنين (10 و 11) الهجريين / (15 و 16) الميلاديين

د. بشار أكرم الملاح

كلية الآداب/جامعة الموصل/العراق



في الوقت الذي رفع فيه الإسلام مكانة الإنسان، ودعا إلى احترامه ومنحه حقوقه كاملة، ومنع التفريق بين البشر على أساس الجنس أو اللون أو العرق، كان الظلم والقهر والسيطرة على المقدرات في العصور الوسطى هي السائدة في المجتمع الأوروبي، فقد كانت الحياة فيه تسير وفق نظامين رئيسيين، هما: (الإقطاع، والرّق)، قسما المجتمع إلى: سيّد إقطاعيّ وقنّ في الأرض، وسيّد مالك وعبد مملوك.



لقد تسبّب رأي الأوروبيين بالرقيق الأسود القاضي بضرورة استرقاق الجنس الأسود لخدمة الجنس الأبيض إلى إفراغ القارة الإفريقية من شبابها

بالرقيق الذين سيركّز البحث على المقارنة بين معاملتهم من قبل العرب ومن قبل الأوروبيين، ويحاول البحث الإجابة عن تساؤل يتمثل في: مَنْ المسؤول عن تجارة الرقيق في إفريقيا: العرب أم الأوروبيون؟ وما رأي الفريقين بالأفارقة بوصفهم بشراً بشكل عام، ورفيقاً بشكل خاص؟ ولكي تكون المقارنة واضحة بين العرب والأوروبيين؛ فقد تمّ تقييده بمدة زمنية كان فيها الوجود الأوروبي في المنطقة قد بدأ وظهر جلياً، وهي القرنان: (العاشر، والحادي عشر) الهجريّان / (السادس عشر، والسابع عشر) الميلاديّان.

ومن أبرز الدراسات السابقة التي تناولت الموضوع بشكل مباشر مجموعة بحوث في كتاب: (مسألة الرّق في إفريقيا من خلال الموقفين الأوروبي والعربي)، الصادر في تونس سنة ١٩٨٢م، بقلم جهاد مجيد محي الدين، إذ ناقشت تلك البحوث الآثار السلبية للرّق على القارة الإفريقية، وكذلك بحث بعنوان: (تجارة الرقيق في إفريقيا من خلال الموقفين الأوروبي والعربي)، بقلم إبراهيم حركات، تحدّث فيه عن

بشرة السكان. ينظر: عبد القادر زبادية: مملكة سنغاي في عهد الأسقيين، (الجزائر - د/ت)، ص (١٥-١٦).

وقد اختلفت الآراء حول نظام الإقطاع، فمنهم من عمل فيه وشجّعه، ومنهم من عانى منه وحاربه، ولم تكن محاربه سهلةً في ذلك الوقت؛ بسبب تغلّله في المجتمع وسيطرته على كلّ المفاصل فيه^(١)، والأمر نفسه ينطبق على نظام الرّق، فقد ظهر منذ عصور قديمة، وعُمل فيه كنظام اجتماعي متكامل^(٢) سائداً، يعتمد من خلاله المجتمع على قدرات الرقيق الجسمانية في جميع مجالات الحياة؛ لحدّ يجعل التفكير بإلغائه لم يكن بالأمر اليسير^(٣).

واختلفت بناءً على ذلك طريقة التعامل مع الرقيق بين شعبٍ وآخر، فمن الرقيق من تعرّض للقتل والتعذيب وسمل العيون وتقطيع الأطراف، كرقيق الرومان واليونان والهند والمصريين القدماء.. وغيرهم من الشعوب^(٤)، بينما كانت معاملة الرقيق أفضل عند العرب قبل الإسلام في بلاد الحجاز واليمن، حيث كانت العقوبات أقلّ قسوة^(٥).

وقبل ظهور الإسلام وبعده؛ بدأت إفريقيا جنوب الصحراء^(٦) ترفد المنطقة العربية

(١) إبراهيم هاشم الفلالي: لا رِق في القرآن (القاهرة - د/ت)، ص (٣٠-٣١).

(٢) أبو بكر الجزائري: منهاج المسلم، دار الكتب السلفية، (القاهرة - ١٤٠٦هـ)، ص ٥٠٢.

(٣) أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، دار الكتب العلمية، ط ١، (بيروت - ١٩٨٨م)، مج ١٧، ص (١٨٢-١٨٣).

(٤) الفلالي، لا رِق في القرآن، مصدر سابق، ص ٢٣.

(٥) أحمد شلبي: مقارنة الأديان (الإسلام) (القاهرة - ١٩٦٧م)، (٢٢٨/٣).

(٦) إفريقيا جنوب الصحراء: هي المنطقة الجغرافية التي يحدّها من الشمال الصحراء الكبرى، ومن الشرق البحر الأحمر والمحيط الهندي، ومن الغرب المحيط الأطلسي، وتسمية المنطقة جاءت لوقوعها جنوب الصحراء الكبرى، وهي التسمية التي اعتمدت من قبل الأوروبيين، فيما أطلق المؤرخون المسلمون تسمية بلاد السودان عليها تبعاً للون

ودون سبب^(٣)، وإذا ما ادّعى العبدُ بأنه حرٌّ وأصرَّ على ذلك فهو حر^(٤)، كما أنَّ كُفَّارة الوطء في رمضان هي عتق رقبة^(٥)، والحُث في اليمين كُفَّارته عتق رقبة^(٦)، وفي حالة حدوث الظواهر الطبيعية، كالخسوف والكسوف، فإنَّ ما يتقرب إلى الله به في تلك الحالة عتق الرقاب^(٧)، فضلاً عن فتحه باب التحرير عن طريق المكاتبه بين السيّد وعبده على مبلغ من المال إذا ما سدّده العبدُ فهو حر^(٨)، كما أنَّ الأَمّة التي تتجرب من سيّدها تصبح أمّ ولدٍ وتحرر^(٩)، وهكذا في كثير من الأمور، بل إنَّ الكلمة التي أُطلقت على العبيد كانت تدل على التسامح والمحبة، وهي: الرّق، والتي تعني الرقة والرفق وحسن المعاملة؛ لأنَّ العبودية لله وحده فقط^(١٠).

ولم يكن هذا الرأي في مسألة الرّق والتعامل الحسن للمسلمين مع رقيقهم خاصاً بجنسٍ مُعين؛ بل مع جميع أجناس الرقيق، ومنهم الرقيق «السودان»، كما أُطلق ذلك عليهم

الموقفين في فترةٍ حديثة، امتدت حتى القرن الثامن عشر الميلادي، إلا أنَّ تلك البحوث لم تجب عن ذلك التساؤل بشكل واضح، حيث ركّزت على نتائج الرّق على القارة الإفريقية دون الخوض في تحديد الجهة التي شرّعت تلك العملية وحوّلتها لتجارةٍ رائجة.

وجاء بحثنا هذا الذي نتّمى أن يكون قد أضاف شيئاً مفيداً للموضوع، لكي يستطيع القارئ عبره أن يميّز بين معاملة كلٍّ من الجانبين لأبناء تلك المنطقة الذين ظلّوا عبر العصور.

أولاً: الموقف العربي؛

أمام كلِّ ذلك ظهر الإسلام بتعاليمه السّمحّة، وتعامل مع الرّق على أساس كونه حالةً اجتماعيةً سائدة في المجتمع العربي، لذا فقد أبقى الإسلام على نظام الرّق، وتعامل معه كتعامله مع بقية المسائل؛ مستخدماً التدرّج في القضاء عليه^(١١)، وقد ركّزت التعاليم الإسلامية على تجفيف منابعه الكثيرة، والمتمثلة في: (رّق الحروب، ورّق الوراثة، ورّق الدين)، وغيرها كثير، وحصرتها في منبعين فقط، هما: (رّق الحروب، ورّق الوراثة)، وإبقائه لرّق الحرب كان نابعاً من أنّ إلغاء ذلك الباب من أبواب الرّق سوف يجعل من أسرى المسلمين عبيداً لدى العدو مقابل إطلاق سراح أسراهم^(١٢).

إلا أنّ الإسلام في الوقت نفسه عمل على فتح أبواب عديدة لتحرير الرقيق؛ مما عجل بإنهاء ذلك النظام بشكلٍ تدريجي، فأصبح لزاماً على السيّد أن يعتق عبده إذا ما ضربه متعمداً

(٣) صحيح مسلم، (١٢٧/١١)، وقال بعض السلف: «لا تضرب المملوك في كلِّ ذنب، ولكن احفظ له ذلك، فإذا عصى الله فاضربه على معصية تذكره الذنوب التي بينك وبينه»، انظر: شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، كتاب الكباثر، (بيروت - د.ت)، ص ٢٠٤.

(٤) مالك بن أنس: المدونة الكبرى، رواية الإمام سحنون بن سعيد، مطبعة السعادة، (القاهرة - ١٣٢٢هـ)، (٧٥/٧).

(٥) موفق الدين أبو محمد عبد الله بن أحمد بن قدامة، المغني (بيروت - ١٩٧٢م)، (٦٥/٣).

(٦) ابن رشد القرطبي: بداية المجتهد، (٤٢٩/١).

(٧) أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري: صحيح البخاري، (بغداد - ١٩٨٦م)، (٧٩/٢).

(٨) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري: جامع البيان في تفسير القرآن، (بيروت - ١٩٧٢)، (١٠١/١٨).

(٩) ابن رشد القرطبي: بداية المجتهد، (٤٢٨/٢)؛ الجزائري: منهاج المسلم، ص (٥٠٥-٥٠٦).

(١٠) أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور: لسان العرب (بيروت - ١٩٩٧م)، (١٢٣/١٠).

(١) أبو الأعلى المودودي: تفسير سورة النور، دار الفكر، (لاهور - ١٩٥٩م)، ص ١٨٩.

(٢) أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبي: بداية المجتهد ونهاية المقتصد (القاهرة - ١٩٦٦م)، (٣٩٧/١).



كان في مقدمة أولئك الرقيق الذين حصلوا على حريتهم بعد دخول الإسلام: سيدنا بلال الحبشي رضي الله عنه

الكعبة الشريفة والأذان عند فتح مكة دون غيره من الصحابة^(٤).

فضلاً عن ذلك؛ فإن عدداً من الرقيق، ولاسيما الأسود، كان قد رفض العودة إلى بلاده بعد تحريره، وذلك بسبب المعاملة الحسنة التي كانوا يلقونها في بلاد الإسلام على يد ساداتهم الذين امتثلوا لأقوال الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، حينما نصحهم بالإحسان إلى رقيقهم قائلاً: «إن إخوانكم حوكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه ممّا يأكل، وليلبسه ممّا يلبس، ولا تكفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم ما يغلبهم فأعينوهم»^(٥).

لقد جاء الإسلام ليؤكد أنّ الأصل هو الحرية لجميع البشر من خلال الإيمان بأنهم متساوون أمام الله تعالى، ولهذا اعتمد المسلمون أسلوب

المؤرخون العرب نسبةً لسواد ألوانهم^(١)، فمع بداية الدعوة الإسلامية كانت مكة وبقية الجزيرة العربية حافلة بأعداد كبيرة من الرقيق السود؛ الذين ما لبث الكثير منهم أن تعرّف على تعاليم الإسلام الداعية للتسامح مع الجميع، وأنها لا تفرّق بين العبد وسيّده، فالناس جميعاً سواسية، وأنّ تنوع القوميات وتعدّد الألوان مرحّب به من قبل العرب المسلمين، فقد قال الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣]. فعلم أولئك الرقيق أنه الدين الحق، وأقبلوا إليه بقوة، ودخلوا فيه، ولم يتركوه برغم التعذيب الشديد الذي تعرضوا له^(٢).

لقد كان في مقدمة أولئك الرقيق الذين حصلوا على حريتهم بعد دخول الإسلام: سيدنا بلال الحبشي رضي الله عنه، والذي ذاق التعذيب على يد مشركي مكة، فقام سيدنا أبو بكر الصديق- رضي الله عنه- بشرائه وتحريره؛ ليصبح واحداً من الصحابة الأجلاء حاله حال أي صحابي كان في الجاهلية سيّداً في قومه، وفي ذلك قال سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «أبو بكر سيّدنا، وأعتق سيّدنا-يعني: بلالاً»^(٣)، بل إنّ سيدنا بلال تميّز عن غيره من الصحابة بأن أصبح مؤذن الرسول صلى الله عليه وسلم، وكان له شرف الصعود على ظهر

(٤) أبو عثمان بن عمرو بن بحر البصري الجاحظ، رسائل الجاحظ (القاهرة - ١٩٦٤م)، (١/١٨٠).

(٥) صحيح البخاري، (٨٢/٢)؛ أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني المعروف بابن ماجه، سنن ابن ماجه، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الكتب العلمية، (بيروت - دت)، ص ١٢١٦. وكان من حقّ العبد على سيّده أن يوفّر له ماء طهارته أو تراب تيمّمه، وبقية الأمور فضلاً عن طعامه وشرايه. انظر: محمد الخطيب الشربيني: مغني المحتاج إلى معرفة معاني المنهاج، شركة مطبعة ومكتبة مصطفى البابي الحلبي، (القاهرة - ١٩٥٨م)، (٤٦٠/٣).

(١) أبو عبيد الله محمد بن أبي بكر الزهري: كتاب الجغرافية، (دمشق - ١٩٦٨م)، ص ٩٢؛ أحمد بن علي القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، (بيروت - ١٩٨٧م)، (٢٧٢/٥).

(٢) محمد بن عبد الملك بن هشام، السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، (القاهرة - ١٩٥٥م)، ق ١، ص ٣٢١.

(٣) صحيح البخاري، رقم (٧٣٤٥).

في منبسا^(٦) تدلّ على ما لأسيادهم العرب هناك من إنسانية، يعجز الواحد أحياناً أن يميّزهم عن أسيادهم، إذ يبيح هؤلاء لهم أن يقلدوهم في اللباس، وفي غيره من شؤون العيش^(٧)، كما أكد ذلك زويمر بقوله: «إن بين الأوروبي والإفريقي هوة تفرّق بينهما، والمسلمون تمكّنوا من إزالة هذه الهوة التي كانت بينهم وبين الزوج»^(٨)، فضلاً عن ذلك فقد أشار المستشرق (آدم سمث) إلى المسألة نفسها بقوله: «إن كثيراً من الرجال الإنكليز الذين يعدّون أنفسهم مسيحيين طبيين لن يجول بخاطرهم الإقرار بالزمالة مع المسيحيين من سود البشرة، أما المسلمون فلا يفرّقون، فالعرب والزوج والبربر إخوة في الدين، ولا يختلط بعضهم ببعض الآخر في العبادة فحسب، وإنما يعاون بعضهم بعضاً عن طيب خاطر في شؤون الحياة اليومية»^(٩).

ويؤكد كاتبٌ أوروبي آخر أن الرّق عند المسلمين يختلف عن الرّق عند النصارى، وأنّ حال الأرقاء في الشرق أفضل من حال الخدم في أوروبا، لأنّ الرقيق في الشرق هم جزءٌ لا يتجزأ من أسرة السيّد، بل إنّ الرقيق يستطيعون الزواج من بنات سادتهم بعد التحرير^(١٠).

فضلاً عن ذلك؛ فقد كان للرقيق عموماً،

التعامل بالحسنى مع الأرقاء^(١١)، كما أنّ المجتمع العربي لا ينظر إلى الناس وفق معيار اللون، أو العنصر، أو الطبقة، بل من خلال العقيدة بالنسبة للعرب المسلمين، ومن خلال الرابطة الإنسانية بالنسبة لغير المسلمين^(١٢).

وانطلاقاً من مبدأ المساواة بين السيّد وعبده في الإسلام؛ فقد ارتدى الرقيق الملابس التي يرتديها الأحرار، في صدر الإسلام وما تبعها من عصور، فكان العبد في المجتمع العربي يشابه سيّده في ملبسه ومشربه ومسكنه أثناء مدّة رقه أو بعد تحوّلِهِ إلى مولى^(١٣)، بل وصلت هذه المساواة بين السادة ورقيقهم إلى حدّ جعل الإماء يلبسن الحليّ أكثر من سيّداتهنّ، وقد برز ذلك خلال العصر العباسي^(١٤)، ولم يكتف العرب بإزالة الفوارق بينهم وبين رقيقهم فحسب؛ بل كانوا لا يميّزون بين رقيقهم وأفراد عوائلهم^(١٥).

وقد اعترف بعض رجال الغزب ومؤرخيهم بحسن المعاملة الإنسانية التي عامل بها العرب رقيقهم، إذ يقول ديورانت برياروسا: «حال الرقيق

(١) عباس محمود العقاد، داعي السماء - بلال بن رباح - (القاهرة - ١٩٤٥م)، ص ٧٢.

(٢) يوسف القرضاوي: ملامح المجتمع المسلم الذي نشده، مؤسسة الرسالة، ط ١، (بيروت - ٢٠٠١م)، ص ٩٩.

(٣) المولى: وهي كلمة أُطلقت للدلالة على صلة القرابة أو صلة الرحم، كما كانت الكلمة تدلّ - ولاسيما قبل الإسلام - على الحلف والاتفاق بين أطرافٍ يقررون التعاون والنصرة بينهم، وفي الإسلام دلت الكلمة على الداخلين في الإسلام من غير العرب، ومعناها هنا خاصٌّ بالرقيق، والمسّمَى: «ولاء العتاقة» حينما يعتق السيّد عبده. ينظر: ابن منظور، لسان العرب: (٢٨٩/٢٠).

(٤) محمد بن عبدوس الجهشياري: الوزراء والكتاب، (مصر - ١٩٢٨م)، ص ٢٥١.

(٥) أحمد بن علي بن عبد القادر المقرئ: المواظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، مكتبة الثقافة الدينية، (القاهرة - د/ت)، (٤١١/١).

(٦) منبسا: وتسمّى أيضاً: «ممبسا»، وهي إحدى أهمّ وأقدم المُدن التي أسّسها المسلمون على الساحل الشرقي الإفريقي، وبلغت أوج ازدهارها في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي. ينظر: أبي الحسن علي بن موسى بن سعيد المغربي: كتاب الجغرافية، (بيروت - ١٩٧٠م)، ص ٨٣.

(٧) دافدنس: إفريقيا تحت أضواء، ص ١٧.

(٨) نقلًا عن الجندي، الإسلام، ص ٩٤.

(٩) محمود سلام زناتي: الإسلام والتقاليد القبلية في إفريقيا، (بيروت - ١٩٦٩م)، ص (٢٤٧-٢٤٨).

(١٠) غوستاف لوبون: حضارة العرب، (القاهرة - ١٩٥٦م)، ص ٣٧٦.

والسودان خصوصاً، دورٌ واضحٌ في الدولة العربية الإسلامية، فقد تولّوا قيادة بعض فرق الجيش^(١)، وفي بعض الأحيان كانوا قادة سياسيين^(٢)، فالإسلام لم يفرّق بينهم وبين الأحرار^(٣)، ولم يتعامل معهم وفق نظرتهم الوثنية للمجتمع والقائمة على نظام الطبقات التي ورثوها عن أسلافهم^(٤)، وعلى هذا الأساس فقد تسلّم عددٌ من الرقيق والموالي مناصب سياسية وإدارية مهمّة^(٥) داخل إفريقيا جنوب الصحراء وخارجها^(٦)، فقد أسهم الرقيق

السودان في تشكيلات بعض الجيوش العربية، كالجيش الفاطمي الذي ضمّ أعداداً كبيرة من الجند السودان، وخصوصاً على عهد المستنصر الفاطمي^(٧)، فضلاً عن تسلّم الرقيق السودان مهمّات إدارية في قصور الطولونيين، فقد عُيّن حاجب أسود للنظر في جنايات الغلمان السودان وحلّ مشكلاتهم، اسمه: «الدرمون»، يجلس عند أحد أبواب الميدان المطلّ على القصر^(٨).

وكدليل على الحرية التي كان يتمتع بها الرقيق السود خارج بلادهم: تحركهم بحرية تامّة واندماجهم مع بقية فئات المجتمع، ومشاركتهم في التغييرات السياسية في البلاد، وهو ما حصل في مصر خلال عدة عهود، وصولاً إلى حكم المماليك لمصر، بل حدثت ثورات عديدة للمبيد السود كان من بينها ثورتهم في مصر سنة ٨٤٩هـ/١٤٤٥م^(٩).

فضلاً عن ذلك؛ فقد شارك الرقيق السود أهل المغرب العربي في جوانب كثيرة من حياتهم، فنجدهم في بلاطات الملوك وعلية القوم، كما نجدهم مقاتلين في الجيش، وفلاحين في الواحات الصحراوية، وعمالاً يستخرجون المعادن، بل تجاراً يقودون القوافل التجارية إذا ما نالوا ثقة رؤسائهم^(١٠).

كما تسلّم بعض الرقيق السودان بعد تحريرهم مناصب سياسية وإدارية داخل بلادهم، وهو الذي حصل في دولة مالي حينما أصبح ساكورة^(١١) حاكماً للفترة (٦٧٤-٦٨٤هـ/١٢٧٥-١٢٧٥م).

(٨) المقرريزي: المواعظ، (١٢٢/٢).

(٩) جمال الفيطناني: ملامح القاهرة في ألف سنة، دار نهضة مصر، (القاهرة - ١٩٩٧م)، ص (١١٢-١١٤).

(١٠) ماجدة كريمي: العلاقة بين المغرب والسودان على عهد المرينيين، العدد (٢٦٩)، (أبريل ١٩٨٨م)، ص ٢٥٠.

(١١) ساكورة: لقد ورد الاسم بصيغ متعددة في المصادر العربية، فقد ذكره القلقشندي باسم «ساكورة»، انظر: صبح الأعشى، (٢٩٤/٥)، كما سماه ابن خلدون: «ساكورة»، انظر: العبر، (٤٣٣-٤٣٤/٥)، وسماه المقرريزي: «ساكورة»، انظر: الذهب المسبوك في ذكر من حج من الملوك، تحقيق: جمال الدين الشيال، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، (القاهرة - ١٩٥٥م)، ص ١١١، وهو أحد موالى أسرة كيتا، ومن الصعوبة معرفة أصله. ينظر: Murphy, History of African, p.117

والسودان خصوصاً، دورٌ واضحٌ في الدولة العربية الإسلامية، فقد تولّوا قيادة بعض فرق الجيش^(١)، وفي بعض الأحيان كانوا قادة سياسيين^(٢)، فالإسلام لم يفرّق بينهم وبين الأحرار^(٣)، ولم يتعامل معهم وفق نظرتهم الوثنية للمجتمع والقائمة على نظام الطبقات التي ورثوها عن أسلافهم^(٤)، وعلى هذا الأساس فقد تسلّم عددٌ من الرقيق والموالي مناصب سياسية وإدارية مهمّة^(٥) داخل إفريقيا جنوب الصحراء وخارجها^(٦)، فقد أسهم الرقيق السودان في تشكيلات بعض الجيوش العربية، كالجيش الفاطمي الذي ضمّ أعداداً كبيرة من الجند السودان، وخصوصاً على عهد المستنصر الفاطمي^(٧)، فضلاً عن تسلّم الرقيق السودان مهمّات إدارية في قصور الطولونيين، فقد عُيّن حاجب أسود للنظر في جنايات الغلمان السودان

(١) L.A.Lugard, A tropical dependency (Anoutline of the Ancient History of the Western sudan (London :1964), P.145

(٢) أبو عبيدالله بن عبدالعزيز البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، نشره: ديوان، (الجزائر - ١٨٥٧م)، ص ١٤٩؛ المقرريزي: المواعظ والاعتبار، (٢٦/٢).

(٣) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، (٢٢٢/١٦).

(٤) إبراهيم حركات: تجارة الرق بإفريقيا من خلال الموقّفين الأوروبي والعربي، بحث منشور في كتاب مسألة الرّق في إفريقيا، (تونس - ١٩٨٢م)، ص ٧٨.

(٥) كان أول حاكم في دولة بني مدرار في سجلماسة هو الأمير عيسى بن يزيد يعود في الأصل إلى أمّ من رقيق إفريقيا. وللمزيد عن دولة بني مدرار والأمير عيسى انظر: عبد الرحمن بن محمد بن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، (بيروت - ١٩٥٦م)، (١٣٠/٦).

(٦) المقرريزي: المواعظ، (٢٦/٢).

(٧) جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى: النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، (القاهرة - د/ت)، (٧٩/٤).

سلطانه، وحسب له أعداؤه ألف حساب^(٨). وفي دولة السنغاي كان مستشار الأسكيا الحاج محمد الأول^(٩) وأمين سرّه من الرقيق، يرافقه في جميع رحلاته.

وفي «كانو»^(١٠) كان حاكمها محمد رومفا^(١١) قد عين عدداً من الرقيق الخصيان في وظائف سياسية مهمة^(١٢)، وحينما سيطر بغودا^(١٣) على عرش مقاطعة «دورة» في «كانو» كان في جيشه عددٌ كبيرٌ من الرقيق، تسلّم عددٌ منهم الحكم في تلك المقاطعة، حتى سقط حكمهم في سنة (٨٢٨هـ/١٤١٩م)^(١٤).

فضلاً عن ذلك؛ فقد أسهم الرقيق الأفارقة

(١٢٨٥م)^(١١)، وهو رجلٌ ذو إمكانيات عالية، وله شعبية كبيرة في أوساط المالين^(١٢)، إذ أصبح في نظر الشعب الحاكم القوي الذي أعاد إلى مالي هيبتها، وحرص أشدّ الحرص على مدّ نفوذها^(١٣).

لقد شنّ ساكورة الكثير من الهجمات على أعدائه من أجل استعادة ممتلكات مالي، فقد بدأ بالهجوم على صنغاي^(١٤) لإخضاعها بعد أن خرجت عن سيادة مالي، إذ استولى على العاصمة (غاو) المنيع على من سبّقه من السلاطين^(١٥)، كما افتتح كوكو^(١٦)، وأشار إلى ذلك ابن خلدون^(١٧) بقوله: «وافتح بلاد كوكو وأصارها في مملكة أهل مالي»، فاتسع نطاق مملكته ليصبح مسيطراً على أراضٍ واسعة، تمتد من المحيط الأطلسي إلى بلاد تکرور، فقوي

(٨) القلقشندي: صبح الأعشى، (٥/٢٦٤).

(٩) الأسكيا الحاج محمد: أحد حكام دولة السنغاي الإسلامية في غرب إفريقيا، قام بثورة سنة (٨٦٢ هـ/١٤٩٣ م) ضد حاكم البلاد (علي كلن)، وتسلّم السلطة بدلاً عنه؛ مبتدئاً حكم أسرة الأسقيين التي حكمت البلاد حتى عام ١٥٩١م. ينظر: نوري، تاريخ، ص ١٥٥.

(١٠) كانو: من مدن بلاد الهوسا المهمة في وسط إفريقيا. وتقع على بعد (٥٠٠ ميل) إلى الشرق من نهر النيجر. ينظر: نوري، تاريخ، ص ٢٩٥.

(١١) محمد رومفا: أبو عبد الله محمد بن يعقوب، حكم بلاد كانو للمدة (١٤٦٣م - ١٤٩٩م)، وكان مهتماً بالعلم، استقبل في بلاده العالم الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي، وتعلم على يده، وأخذ عنه الكثير من المعلومات المفيدة في إدارة البلاد. ينظر: أ.م. كاني: مظاهر الاتصالات الفكرية والثقافية بين شمال إفريقيا ووسط السودان بين سنة (٧٠٠م - ١٧٠٠م)، مع إشارة خاصة إلى كانو - برنو، وأرض الهوسا، منشور في مجلة البحوث التاريخية، ص ٢، ١٤، (ليبيا: ١٩٩٧)، ص ١٨.

(١٢) مهدي آدمو: الهوسا وجيرانهم في السودان الأوسط، بحث منشور في كتاب تاريخ إفريقيا العام، (اليونسكو - ١٩٨٨م)، (٤/٢٧٩).

(١٣) بغودا: ابن باو بن بايزيد حاكم بلاد الهوسا (نيجيريا)، أرسله أبوه لحكم دورة من بلاد كانو بعد أن سيطر عليها. ينظر: آدم عبد الله الألوري: موجز تاريخ نيجيريا، (بيروت - ١٩٦٥م)، ص ٨٠.

(١٤) الألوري، المرجع نفسه، ص ٨١.

(١) إبراهيم علي طرخان: دولة مالي الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (القاهرة - ١٩٧٢م)، ص ٦٨.

(٢) Murphy, History of African, p. 117.

(٣) طرخان: دولة مالي، ص ٦٩.

(٤) صنغاي: قبيلة إفريقية تعيش في إقليم يقع في أواسط النيجر، ويمتحن أفرادها صيد الأسماك وزراعة الدخن، وفي القرن الأول الهجري/الاسابع الميلادي انتظمت تحت سلطة واحدة، تحكمها عائلة قيل إنها قادمة من المغرب العربي، عُرفت باسم: (عائلة ضياء)، قامت فيما بعد بتأسيس مملكة إسلامية في غرب إفريقيا على أنقاض دولة مالي الإسلامية. ينظر: دريد عبد القادر نوري: تاريخ الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء من القرن ٤-١٠هـ/١٠-١٦م، ط١، (الموصل - ١٩٨٥م).

(٥) Lugard, P.120.

(٦) كوكو: اسم أمة وبلاد من السودان، وملكهم يظاهر رعيته بالإسلام، وأكثرهم يظاهر به، وله مدينة على النيل (النيجر) اسمها: «سرناء»، فيها أسواق ومتاجر. ينظر: شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي: معجم البلدان دار صادر، ط٢، (بيروت - ١٩٩٥م)، (٤/٤٩٥).

(٧) ينظر: العبر: (٦/٢٠٠) و (٥/٤٩٤).



رأى الغرب أن الإفريقيي فاقد للإنسانية، وباسترقاقه سوف يحصل على حياة أفضل

ووضع اللوم على العرب، وإظهار العربي بمظهر تاجر الرقيق المعلم لبقية الأمم لهذه الفتنة، وتشويه صورته أمام الأفارقة، وزرع الحقد والكراهية في نفوسهم تجاه العرب^(٤)، فيذكر جيمس ويلارد^(٥) «أن استغلال العمال السود كان مقدمة العرب للبشرية؛ لأنهم هم الذين نظموا هذه التجارة الواسعة بالبضاعة الإنسانية من إفريقيا إلى موانئ الأطلسي والمتوسط».

ويبدو أن المؤلف «ويلارد» لم يسمع بالمعاملة الحسنة التي لاقاها الرقيق بشكل عام على يد العرب؛ مقابل ما لاقاه الأفارقة على يد الغربيين وبعترافهم أنفسهم.

فقد تشكّلت شركات خاصة بعملية نقل الرقيق إلى أوروبا، كشركة غينيا الفرنسية، وشركة البحر الجنوبي الإنكليزية^(٦)، إلا أن البرتغاليين كانوا قد سبقوا تلك الشركات وأرسلوا أول شحنة إلى خارج إفريقيا عام

في نجاح الكثير من معارك دولة السنغاي ضد الوثنيين، فقد كانت تشكيلات الجيش، ولاسيما صنف المشاة، يزخر بالمقاتلين الأشداء الذين أخضعوا كل وادي النيجر تحت راية الإسلام^(١)، كما أسهم الرقيق في تشكيلات الحرس الملكي التي تقوم بمهام حماية السلطان أو الحاكم في البلاد؛ لما يتمتع به أفراد ذلك الصنف من موهبة قتالية وتدريب عال وانضباط وأمانة، للحد الذي دفع بحكام البلاد لاختيار قادتهم العسكريين من بين أبناء ذلك الصنف^(٢).

ويبدو - مما سبق وغيره - بشكل جلي اندماج الرقيق الأفارقة في الدولة العربية الإسلامية، ومعاملتهم معاملة الأحرار في المشرق والمغرب الإسلامي.

ثانياً: الموقف الأوروبي:

على عكس موقف العرب من الرقيق الأسود ورأيهم فيه، جاء موقف الأوروبيين من تلك المسألة ورأيهم فيها؛ متمثلة في المعاملة السيئة التي عاملوا بها الرقيق الأسود، فقد دعم الرأي الأوروبي بإباحة تجارة الرقيق بموقف علماء اللاهوت والمسؤولين في أوروبا؛ بدعوى أن الإفريقيين أفضل حالاً في ظل الإشراف المسيحي منه عند الوثنيين أو العرب من ملاك الرقيق، وأفادت تلك الحجّة أنه طالما كان الرق شيئاً طبيعياً عند الإفريقيين فما على الأوروبي إلا أن يتأكد من أن العبد المشتري يُستعبد بطريقة عادلة تماشى والقانون الإفريقي^(٣).

وأمام ذلك؛ فقد عمل الغرب المسيحي على تبرئة نفسه من تدمير القارة الإفريقية بالرق،

(٤) أحمد مشهور الحداد: حقائق تاريخية عن العرب والإسلام في إفريقيا الشرقية، ص ٢٥.

(٥) جيمس ويلارد: الصحراء الكبرى، ط١، (بيروت - ١٩٦٧)، ص ١٥٤.

(٦) عبدالسلام الترماني: الرق ماضيه وحاضره، سلسلة عالم المعرفة، (الكويت - ١٩٧٩م)، ص ١٥٦.

(١) نوري: تاريخ، ص ١٥٦.

(٢) زبديّة: مملكة سنغاي، ص (٦٦-٦٧).

(٣) دونالد ويدنر: تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء، دار الجيل للطباعة، (القاهرة - د/ت)، ص ٧٧.

البرتغال وأسواقها قرابة ١٠٠٠ عبد سنوياً^(٦)، يتم استخدامهم في مزارع البرتغال وإسبانيا؛ إذ كانوا يُباعون إلى نبلأ الأاسبان ليعملوا عمالاً في أراضي الريف الواسعة، فضلاً عن عمل آخرين في الجزر المقابلة للساحل الغربي الإفريقي التي تم اكتشافها، مثل ماديرا وجزر الكناري والرأس الأخضر وساو تومي وبرنسيب، والتي زُرعت بالكروم وقصب السكر والخضروات وأنواع من الفواكه^(٧).

وكان جلب الرقيق الأسود للعمل في تلك المزارع بسبب فشل العمال السابقين من الهنود الحمر في تلك الأعمال؛ مما شجع تجار الرقيق الأوروبيين ورجال السياسة، بالتعاون مع رجال الدين، في استصدار قرار بمشروعية استرقاق السود، وبرغم ما قام به أولئك السود من ثورات ضدّ الظلم والتعذيب الذي تعرّضوا له خلال استرقاقهم؛ فإنّ البرتغاليين وغيرهم من المحتلين نجحوا في استرقاقهم، وفصلهم عن عوائلهم وأوطانهم، فعاشوا في محيط غير مألوف لهم، فهم لا يعرفون لغة الأهالي وعاداتهم^(٨).

لقد عملت شركات تجارة الرقيق الغربية- المدعومة من قبل حكومات البلدان التي تنتمي إليها- على تشويه صورة الأفارقة الذين تجلبهم كرقيق، فعملت تلك الشركات في البداية على خلق الفتن بين الإفريقيين أنفسهم، وتحفيز رؤساء القبائل وعلية القوم على اقتناص أبناء قبائلهم وبيعهم لتلك الشركات من خلال مبدأ

١٤٤٢م؛ حينما أهدى هنري الملاح^(١) عدداً من رقيقها إلى البابا، وباع الباقي في أسواق لشبونة^(٢)، ليحصل بعدها على موافقة رسمية من البابا بعد أن أعلن أنه يعمل على استرقاق «الكفرة» من الأفارقة؛ مما أعطاه غطاءً جيداً لتحركاته^(٣).

ويشير شهود العيان من الأوروبيين أنّ نهاية القرن الخامس عشر الميلاديّ شهدت بيع العبد الأسود مقابل اثنتي عشرة أو خمس عشرة قطعة من الأساور النحاسية^(٤)، فقد كان التجار الأوروبيون الساكنون على الساحل الإفريقيّ يشتررون الرقيق من الداخل الإفريقي بأبخس الأثمان، وبيعونه بثمان مرتفع على الساحل^(٥).

لقد تسبّب رأي الأوروبيين بالرقيق الأسود القاضي بضرورة استرقاق «الجنس الأسود» لخدمة «الجنس الأبيض» إلى إفراغ القارة الإفريقية من شبابها، ففي سنة ١٤٤٨م تركزت في مدينة إرغان تجارة نظامية تقوم على مبادلة البضائع بالبشر، وبعد سنة ١٤٦٠م كان يقصد

(١) هنري الملاح: هو ابن الملك يوحنا ملك البرتغال، عمل هنري في الكشوف الجغرافية بمباركة البابا نيولوا الخامس. ينظر: علي محمد محمد الصلابي: الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط، دار التوزيع والنشر الإسلامية، ط١، (مصر - ٢٠٠١)، ص ١٩٣.

(٢) إبراهيم علي طرخان: البرتغاليون في غرب إفريقيا، بحث منشور في مجلة كلية الآداب، مج ٢٥، ج ١، القاهرة - ١٩٦٢م، ص ٢٤.

(٣) طرخان: البرتغاليون، ص ٢٥.

(٤) باسيل دافيد سون: إفريقيا القديمة تكتشف من جديد، ترجمة: نبيل بدر وسعد زغلول، مراجعة: محمود شوقي الكيال، الدار القومية للطباعة والنشر، (القاهرة - د/ت)، ص ٦٠.

(٥) رولاند أوليفر وجون فيج: تاريخ إفريقيا، ترجمة: عقيلة محمود رمضان، مراجعة: أحمد صوار، الدار القومية للطباعة والنشر، (القاهرة - د/ت)، ص ٥٩.

(٦) ج. دينيس و ش. لبيب: إفريقيا من خلال العلاقات بين القارات، بحث منشور في كتاب تاريخ إفريقيا العام، (اليونسكو - ١٩٨٨م)، (٦٦٨/٤).

(٧) E.J.MURPHY, History of African civilization (New york:1979), p. 273

(٨) Murphy, History, p. 275



وكان الرقيق الأسود الذي استولى عليه الأوروبيون قد عانى الكثير، وخصوصاً خلال نقلهم إلى خارج القارة، وذلك بقيامهم بعزل الرجال عن النساء، وإيقافهم بشكل دائرة بعد أن كانوا قد ساروا لمسافة طويلة؛ بحيث يعجز بعضهم عن الوقوف، ويقف في وسط الدائرة تجار الرقيق ليتفحصوا تلك البضائع البشرية من الرجال وكذلك النساء، وليُنقلوا بعدها بالسفن التي حُصّصت لتستوعب أكبر عددٍ ممكن من البشر، وربما أكثر من حمولتها؛ مما يولّد الزحام الشديد الذي ينتج عنه الأمراض وحالات الاحتراق^(٣).

وكانت السفن التي تقوم بنقل أولئك الرقيق قد أنيطت قيادتها بأشدّ الملاحين قساوة ومكراً؛ ليتمكن من التعامل مع تلك الأعداد من البشر الذين لا يجدون مكاناً للجلوس على السفينة، بل المكان المخصّص لكلِّ بشرٍ واحدٍ

(٣) الترماني: الرق، ص ١٥٦.

«فرّق تسد»، ومن ثمّ العمل على ترويح أقاصيص تشير إلى وحشية الأفارقة، وبثّها على لسان المبشّرين والمستكشفين والتجار؛ لكي تتنقح الجميع بأنّ الرق بالنسبة للأفارقة هو إنقاذٌ لهم من خلال نقلهم إلى العالم المتحضّر^(١)!

ولنجاح أولئك التجار، ومن ثمّ الشركات العاملة بتجارة الرقيق في مسعاهم، فقد عملوا على غلق الطريق أمام الأوروبيين الراغبين في الوصول إلى إفريقيا للعمل في تجارة الملابس أو المواد الغذائية وغيرها، وحاربوا أصحاب تلك التجارات وأبعدوهم عن القارة؛ لكي لا يكتشفوا سرّ عمل تجار الرقيق، ولينفرد أصحابها بذلك الربح^(٢).

(١) محمد عبدالفتاح إبراهيم: إفريقيا من السنغال إلى نهر جوبا، مكتبة الأنجلو المصرية، دار الطباعة الحديثة، القاهرة - ١٩٦١م، ص ١٣٩.

(٢) دولاند أوليفر: موجز تاريخ إفريقيا، ترجمة: دولت صادق ومحمد السيد غلاب، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة - د/ت، ص ١٤٧.

بعضهم بعضاً، وأنَّ عدداً من تجار الرقيق العرب عملوا في تلك التجارة بقوة، فإنَّ وصول الأوروبيين وتخطيطهم للأمز زاد من بشاعة المسألة، وخصوصاً على الساحل الغربي للقارة في مناطق خليج بنين وساحل الذهب^(٥).

وربما كان للظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي تعيش فيها القارة الإفريقية دوراً في وصول الأوروبيين، ونظرتهم السيئة حول السكان الأفارقة، فقد صوّروا المجتمع كأنه بعيدٌ عن الحضارة، وأنَّ الصراع بين القبائل هو السائد، والاقتصاد قائمٌ على الزراعة البدائية والرعي، وأنَّ الوقوع في الأسر أثناء الحروب والتحوُّل إلى رقيقٍ أمر طبيعي، لذا فإنَّ وصول الأوروبيين للمنطقة هو الحل، فجاءوا ومعهم السلاح والمال، وشجّعوا القبائل القوية على شراء السلاح لقتال الأعداء والحصول على رقيق، وبالتالي بيعه للغرب^(٦).

ويشير الأوروبيون إلى أنَّ الرقيق الأسود تمكَّن بحكم القابلية الجسمانية أن يقاوم ويعمل؛ على عكس الهنود الذين تمَّ استبعادهم، وبمرور الزمن كانت أعداد الرقيق الأسود قد تزايدت في «العالم الجديد» كما سمَّاه الغرب، وإن كانت تلك الحياة دون رغبة أولئك الرقيق، كما أنَّ الهروب من ذلك المكان كان أمراً صعباً، وقد وصلت أعدادهم إلى حوالي ٧٥,٠٠٠ عبد في بدايات القرن السابع عشر الميلادي في أمريكا الإسبانية، كما تمَّ نقل ٥٠,٠٠٠ عبدٍ إلى البرازيل البرتغالية^(٧).

(٥) ايناكورين براون: تاريخ الزوج في أمريكا، ترجمة: م. عيسى، مؤسسة سجل العرب، (القاهرة - د/ت)، ص (١٧-١٨).

(٦) جهاد مجيد محي الدين: الآثار السلبية للرق في إفريقيا، بحث منشور في كتاب مسألة الرق في إفريقيا، ص (٥-٦).

(٧) muruphy , History , p. 276

هو ما يكفي لوقوفه فقط، وبرغم ذلك يُجبر على التمدد فيه، ومن ثمَّ يتمَّ شدُّه بسلاسل مع مَنْ هو بجانبه، وإذا ما رأى القبطان أنَّ السفينة معرّضة للخطر بسبب الحمولة الزائدة؛ فله أن يلقي في البحر مَنْ يشاء من الرقيق^(١)!

وبرغم المعاملة السيئة التي تعامل بها الغرب مع الرقيق الأسود؛ فإنهم حاولوا أن يبعدوا مسألة البدء بتلك التجارة عن أنفسهم، ويلصقوها بالعرب، فيقول أحدهم إنَّ ابن بطوطة تألم كثيراً لأنه زار خلال رحلته المدن الزنجية، وشاهد أولئك السود الذين «تعود» أن يراهم رقيقاً، فقد رأهم أسياداً في بلادهم، وهو أمرٌ مزعج بالنسبة له^(٢)، إلا أنَّ الحقيقة غير ذلك إذ أنَّ الرحالة ابن بطوطة وصل بلاد السودان برغبته وبتشجيع من السلطان المريني أبو الحسن^(٣)، وقد شاهد خلال رحلته الكثير وفرح لبعضها، وضجر لبعضٍ آخر، لكنه لم يفرق بين عبدٍ أو حرٍّ، ولم يحكم على الجميع بأنهم رقيق^(٤).

وفي المقابل؛ فقد سجّلت تجارة الرقيق الأسود سجلاً من أحلك السجلات في تاريخ الغرب، فضلاً عن أنَّ الإفريقيين استعبد

(١) الترماني، المرجع نفسه، ص ١٥٧.

(٢) بوفل: الممالك الإسلامية في غرب إفريقيا وأثرها في تجارة الذهب عبر الصحراء الكبرى، ترجمة: زاهر رياض، مكتبة الأنجلو المصرية، (القاهرة - ١٩٦٨)، ص ١٢١.

(٣) أبو الحسن: هو أبو الحسن علي بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق، تولى الحكم بعد وفاة السلطان أبو سعيد المريني، وكان يسمّى بالأكل للونه الأسمر، والذي اكتسبه من أمه الحبشية، حكم البلاد حتى وفاته سنة (٧٥٢هـ/١٢٥١م). ينظر: ابن خلدون: العبر، (٢٨٦/٧-٢٨٧).

(٤) محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي المعروف بابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة المسماة: تحفة النظائر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، اعتنى به وراجعها: درويش الجويدي، المطبعة العصرية، (بيروت - ٢٠٠٧م)، (٢٧١/٢)، وما بعدها.

الظروف الصعبة التي يعيش فيها الأفارقة، ولاسيما الفقراء منهم، وهم كثر، من خلال منحهم الأموال ومعالجتهم مقابل تحويلهم إلى النصرانية^(٣).

وبذلك نلاحظ أنّ الاختلاف في الرأي ظهر جلياً في التعامل مع مسألة الرقيق عموماً، والرقيق الأسود المجلوب من إفريقيا خصوصاً، فموقف العرب كان نابعاً من رأيهم المتمثل بعدم التفريق بين البشر مهما كان جنسهم، بل المقياس هو التقوى، في حين كان رأي الأوروبيين بالرقيق الأسود - خصوصاً - يتمثل في كونهم من طبقة دنيا لا ترتقي إلى مستوى البشر، وأنّ استعبادهم له فائدة كبيرة لهم من خلال تحويلهم إلى مصافّ البشر.

وفي الختام:

هل هناك شكّ في تحديد هوية المسؤول عن استعباد الأفارقة وتشريدهم وتدمير مدنهم وقراهم؟ فإذا ما أردنا أن نحكم على الفريقين: (العربيّ) و (الأوروبيّ)، وإلى وقتنا الحاضر، نلاحظ أنّ الرقيق الأسود قد تحوّل بمرور الزمن، إلى مواطنين مندمجين في المجتمع الإسلامي، أما من تمّ استرقاقهم من قبل الأوروبيين فقد شُرِّدوا وقُتلوا وأُخرجوا من بلادهم، والأعداد الكبيرة الموجودة منهم في أمريكا أكبر دليل على ذلك ■

وكان لرأي الغرب في الرقيق الأسود (بكون الإفريقيّ فاقداً للإنسانية، وباسترقاقه سوف يحصل على حياة أفضل) تأثيرٌ سلبيّ كبيرٌ على القارة الإفريقية بشكل كامل، فكان الإفريقي لا يسير على الساحل إلا وهو مسلّح خشية الوقوع في الرّق، وكان ما يُحزن الأفارقة أنّ بعض أبناء جلدتهم من المتعاونين مع الأوروبيين: أسهموا بشكلٍ أو بآخر في عقد الصفقات مع الأوروبيين لبيع مواطنيهم الأفارقة، إذ لم يكن همّ هؤلاء سوى الربح الماديّ المتحقّق من وراء ذلك العمل^(١).

ونتيجةً لقناعة الغرب المسيحيّ بأنّ استرقاق الإفريقي جاء لخيره، من خلال تحويله من الإسلام أو الوثنية إلى المسيحية، والتي ستحوّله من حالته السيئة إلى الإنسانية والرقي، فقد هيؤوا بعثات تصيرية داخل إفريقيا تنتشر بين السكان الذين بقوا، ولم يتمّ استرقاقهم خارج القارة، وكان الهدف الأول لتلك الحملات يتمثل بإقناع الأفارقة أنّ العرب ما قدموا سابقاً إلى القارة إلا ليخطفوا أبناءها ويذهبوا بهم بعيداً لبييعهم، وربما يكون ذلك القول قد أثار في نفوس البعض من الأفارقة، وجعلهم ينظرون إلى العرب نظرة حقد^(٢).

وربما يكون قلة وعي العرب وجهلهم وقلة دعاة الإسلام في القارة الإفريقية، وخصوصاً في إفريقيا الوسطى، قد ساعد الأوروبيين في مساعدهم، فقد كان الإفريقيّ محبباً للإسلام بعاطفته، إلا أنّ ذلك لا يكفي أمام وسائل التنصيريين ودهائهم، كما أنّ هؤلاء استغلوا

ROLAND Oliver , The Middle age of African (١) History, p. 36 – 37

(٢) إبراهيم النعمة: الإسلام في إفريقيا الوسطى، دار الأنصار، (القاهرة - ١٩٧٧م)، ص ٥٢.

(٣) النعمة، المرجع نفسه، ص ٥٤.